أوقاف

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة فصلية محكمة تعنى بشؤون الوقف والعمل الخيري

العدد 1 - السنة الأولى - شعبان 1422هـ نوفمبر 2001م

- **تغيير مصارف الوقف**
  حالة وقف السور الدفاعي في مدينة طرابلس الغرب نموذجاً
  د. جمعة الزريقي

- **تطور منشآت الوقف عبر التاريخ**
  (العمارة / التكية) نموذجاً
  د. محمد الأرناؤوط

- **الأوقاف المنقوشة على جدران مساجد طرابلس الشام**
  مدارسها ودلالاتها التاريخية في عصر المماليك
  د. عبدالسلام تدمري

- **مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز**
  تجربة مؤسسة رائدة في الوقف
  أ. حسين أمبد باني

- **الوقف والنظم الشرعية والحديثة ذات العلاقة**
  محاولة للتصنيف ومقترحات للتفعيل والتعاون
  د. جمال الدين عطية

- **آفاق التعاون المشترك بين مؤسسة الوقف والمنظمات الأهلية**
  د. ياسر حوراني

تصدرها الأمانة العامة للأوقاف - دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

أوقاف

مجلة فصلية محكمة تعنى بشؤون الوقف والعمل الخيري

رئيس التحرير

د. فؤاد عبدالله العمر

مدير التحرير

د. طارق عبدالله

هيئة التحرير

د. عيسى زكي شقرة

د. غانم عبدالله الشاهين

أ. مبارك عبدالله الذروة

الهيئة الإستشارية

«مرتبة هجائياً»

د. جمال الدين عطية

د. عبدالعزيز التويجري

د. عبدالغفار الشريف

د. منظور عالم

أوقاف العدد 1 - السنة الأولى - 1422 هـ 2001 م

المحتويات

تقديم 5

الافتتاحية 6

بحوث ومقالات

● تغيير مصارف الوقف حالة وقف السور الدفاعي في مدينة طرابلس الغرب نموذجاً

د. جمعة محمود الزريقي 10

● تطور منشآت الوقف عبر التاريخ (العمارة/ التكية) نموذجاً

د. محمد موفق الارناؤوط 28

● الأوقاف المنقوشة على جدران مساجد طرابلس الشام ومدارسها ودلالاتها التاريخية في عصر المماليك

د. عمر عبد السلام تدمري 39

● مجمع الربع الرشيدي في مدينة تبريز - تجربة مؤسسية رائدة في الوقف

أ. حسين أمدياني 50

● العمل الأهلي والتنمية الثقافية - رؤية أولية -

أ. محمد محفوظ 78

● الوقف والنظم الشرعية والحديثة ذات العلاقة (محاولة للتصنيف ومقترحات للتفعيل والتعاون)

د. جمال الدين عطية 88

● آفاق التعاون المشترك بين مؤسسة الوقف والمنظمات الأهلية

د. ياسر عبدالكريم الحوراني 98

● الشخصية الاعتبارية للوقف

محمد بن أحمد العكش 125

ملفات

● التنسيق الدولي في مجال الوقف

إعداد/ قسم التحرير 152

عرض كتب 160

إصدارات حديثة 167

مجمع الرَّبع الرشيدي في مدينة "تبريز"
تجربة مؤسسية رائدة في الوقف

أ. حسين اميديانى*

يقدم البحث لتجربة مجمع الرَّبع الرشيدي الوقفي في مدينة تبريز الإيرانية في القرن السابع هجري. ويستعرض الباحث الحيثيات التاريخية والاجتماعية التي حفّت بتأسيس وانتشار التجربة. كما يشرح الكاتب أسس التنظيم الإداري والمالي لوقف الربع الرشيدي، ويحلل جملة النشاطات الثقافية والعلمية والخدماتية التي تفرعت عن هذا النموذج الوقفي.

1. تمهيد

قبل الخوض في هذا الموضوع يبدو أن ذكر هذه النكتة يعد ضروريًا، وهي أننا عندما نخوض في مبحث تاريخي سواءٌ أكان في التاريخ السياسي والحضاري، أم الوقفي فإن الهدف هو أخذ الدروس والعبر ليومنا ومستقبلنا، وإلا فإن مقولة "التاريخ للتاريخ" و"العلم للعلم" ليست هدفنا، كما لا نقصد من خلال طرح المباحث التاريخية التباهي والتفاخر!

إن من جملة الأسباب المهمة في تنمية الحضارة الإسلامية وازدهارها والتطور العلمي الحاصل، التنظيم والبرمجة الصحيحة في أمر التربية والتعليم وتحصيل المعارف والتحقيق والبحث. إن الدعم المادي والمعنوي للعلماء والباحثين أسفر عن إيجاد مراكز علمية وتحقيقية كبيرة كدور العلم والمدارس وبيوت الحكمة والمستشفيات والمراصد التي أرست دعائمها مؤسسات وقفية كبيرة.[1]

واحد من هذه المراكز العلمية والتربوية الوقفية، هو مركز الرَّبع الرشيدي الذي أسسه وأوقفه رشيد الدين فضل الله الهمداني (718-648هـ)، الطبيب والمؤرخ والوزير الإسلامي المعروف.

أ) المكانة العلمية والاجتماعية لرشيد الدين فضل الله الهمداني:

عاش رشيد الدين في زمن دُمرت فيه المؤسسات الاجتماعية في إيران وسائر بلدان الشرق الإسلامي أثر غزو المغول، فكان حفظ تراث السابقين عبئًا ثقيلا نهض به رجال قلائل، ورشيد الدين كان أحد هؤلاء، وكذلك كان نصير الدين الطوسي الذي سبقه بجيل

---

* أستاذ كلية العلوم االقرآنية، طهران، جمهورية إيران الإسلامية.

[1] تاريخ العلم، الوقف وضرورته، ميراث جاويدان العدد، 15، 16 خريف وشتاء 1996م، الصفحات 5،6.

حيث عكف بهمته العالية على تأسيس مرصد ومدرسة علمية متقدمة في مراغة – فقد بـــدأ رشيد الدين لوحده بإرساء دعائم جامعة ومركز علمي وقفي كبير باسم"الرَّبع الرشـــيدي" أو"الرشيدية" وأصرّ على هذا الأمر، حيث تمكن في فترة قصيرة من الأخذ بيد هذا المركز كي يبلغ مراحل متقدمة ويتبوّأ مكانة عالمية.. وأوجد في الرَّبع الرشيدي مدرسة كـــانت بحـق مدرسة عالمية حيث درست فيها بالإضافة إلى العلوم الإسلامية، والعلوم الصينية والهنديـــة، والمعارف الرومية البيزنطية، وكانت دروسها باللغة الصينية واليونانيـــة والعبريـــة والمغوليـــة والتركية، إضافة إلى الفارسية والعربية، وذاع صيتها في الآفاق من بكين إلى القسطنطنية[2].

إن أهمية خطوة رشيد الدين في إيجاد مجمّعه التعليمي الوقفي الكبير تتجلى أكثر فـأكثر عندما نلحظ الخصائص السياسية والاجتماعية والثقافية في عصره بصورة واضحة، ونلمـــس مكانة العلم والعلماء؛ ذلك أن استيلاء المغول على إيران وغيرها من البلـــدان الإســـلامية لم يجلب على هذه البلاد سوى الضعف والاضطراب.

ب) نبذة عن حياة رشيد الدين:

كان رشيد الدين رجلا سياسيًا وعالمًا وطبيبًا فذًّا في القرن السابع وإلى جانب ذلـــك كان من "أكبر المؤرخين الإيرانيين وكان عالمًا بجميع علوم عصره" ولـــد في همـــدان عـــام 648هـــ، تعلم رشيد الدين – الذي ذكرته بعض كتب التاريخ باسم رشيد الحـــق ورشـــيد الدولة – الطب على يد أسرته في همدان"[3].

التحق أول مرة ببلاط (آباقاخان) بوصفه طبيبًا وترقى في عهد (ارغون)، بعدها منحـه (غازان خان) في عام 697هـــ (رتبة نيابة الأمور الخارجية ومنصـــب الـــوزارة وصـــاحب الديوان" إلى جانب سعد الدين الساوجي"[4].

ج) أفكار رشيد الدين وسبب اتجاهه للوقف:

ربما كان أفضل مصدر ومرجع لتعرُّف أفكار رشيد الدين وحقيقة الهدف الذي دعاه إلى وقف الكثير من أمواله وبناء المجمّع الوقفي للرَّبع الرشيدي –إضافة إلى آثاره وكتاباته– هـــو حجة الوقف المسهبة والقيّمة لهذه الموقوفات.

ويتطرق رشيد الدين في مقدمة حجة الوقف إلى الفوائد الدنيوية والأخرويـــة للوقـــف والإحسان والعمل الصالح وحيث يقول: "وكذلك يقول الحديث النبوي" إذا مات ابـــن آدم

---

[2] حسين نصر، مجموعة مقالات حول رشيد الدين فضل الله الهمداني، نشر جامعة طهران 1971م، الصفحات 3 إلى 6.

[3] أيليا باولوفيتش، بطروشفسكس، (الإسلام في إيران) (فصل من الهجرة النبوية إلى بداية القرن التاسع الهجري)، ترجمـــة كريم كشاورز (نشر بيام، ط7، طهران 1984، ص148.

[4] محمد مهدي بروشكي (دراسة المناهج الإدارية والتعليمية في ربع الرشيدي) نشر الروضة الرضوية المقدسة، مشهد 1986)، الصفحات 21–22 نقلا عن : ناصر الدين الكاتب الكرماني، نسائم الأسمار في لطائم الأخبار (في تاريخ الوزراء) بتصحيح ميرجلال الدين الحسيني الرموي (المحدث) (طبعة جامعة طهران 1959) ص113–112.

انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية و علم يتنفع به وولد صالح يدعو له"[5] وقد فسّر أكثر المحدثين الصدقة الجارية بالوقف، ذلك أن درجات الثواب والعقاب تتفاوت حسب الأعمال الصالحة والطالحة، ويضيف أن هذه الأمور الثلاثة لا تنقطع عن الميت، فخيرها يصل إلى له ويزيد من رصيد أعماله الخيّرة في الدنيا، فيكسب أجرًا مضاعفًا وجديدًا ويبلغ درجة وكمالا أفضل مما حصل عليه في حياته.

وذكر في مقدمة حجة الوقف أن بناء أماكن الخير كان شغلة منذ الشباب، وعليه نرى أن رشيد الدين بنى طوال فترة عمره وقبل بنائه الرَّبع الرشيدي، أماكن خيرية أخرى ولكن بمساحة أقل، إلا أن هذه الإنشاءات الصغيرة لم تلبّ رغباته وكان يفكر دومًا في أن يبني مركزًا كبيرًا يكون مقرًا لتجمع العلماء والمفكرين ليتم عبره تطوير العلوم والاستفادة منها شخصيًا من خلال مخالطتهم والاحتكاك بهم، ولهذا السبب أقدم على إنشاء مركز الرَّبع الرشيدي الكبير ليتمكن من تحقيق هدفه.

د) الموقع الجغرافي لمباني الرَّبع الرشيدي ووضعها الفعلي:

بنى رشيد الدين إبان حكم (غازان خان) حتى أواخر عمره في زمان حكم السلطان أبو سعيد بهادر، مجموعة من المباني والعمارات الجميلة في ضاحية الرشيدية بتبريز التي عرفت باسمه، وقد سُميت تلك المباني بالرَّبع الرشيدي، وكانت هذه المباني متصلة بعضها بالبعض الآخر تطوّقها أسوار، ولها أبراج وتقع خرائب هذه العمارات وأطلالها حاليًا في آخر محلة ششكلان بتبريز المنتهية عند محلة باغميشه ووليان كوه (بيلان كوه)، وتقع على الجانب الأيسر من سفح جبل سرخاب وهي منطقة مشهورة بمناخها اللطيف[6].

وبما أنه لم تبق من هذه المباني في يومنا هذا غير تلال من الأتربة والأطلال، سنضطر إلى شرح أشكال الأبنية عبر ما ورد في الكتب القديمة علّنا نستطيع أن نوضح جانبًا من هذه العمارات في مقالنا هذا.

كتب "دولت شاه السمرقندي" في كتابه "تذكرة الشعراء" حول الرَّبع الرشيدي يقول: "كان لرشيد الدين الهمداني الأصل، عمارات في تبريز بلغت من العلو درجة، لا تضاهيها عمارات أخرى في العالم وقد كتب في أعلاها إن تدمير هذه العمارة عمل أصعب من بناء عمارة مشابهة"[7].

وكتب الرحّالة الفرنسي المعروف (شاردن) الذي زار إيران في عام 1084هـ: "توجد خارج مدينة تبريز إلى الشرق آثار قلعة قديمة مُدمرة. كانت تعرف باسم قلعة الرشيدية وهي من عمارات رشيد الدين فضل الله وزير غازان، صاحب تاريخ الرشيدي في أحوال

---

[5] رواه مسلم كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب. وأبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الصدقة، والنسائي: كتاب الوصايا، باب فضل الصدقة (المراجع).

[6] محمد مهدي بروشكي ص 67.

[7] دولت شاه سمرقندي ، تذكرة السفراء، طهران ص241.

المغول كان قد بناها قبل أربعمائة عام. ولقد قام الشاه عباس قبل قرن من الزمان بإعادة إعمار قلعة الرشيدية وأعادها إلى حالها الأولى لكن ملوك الصفوية بعده لم يروا مصلحة في بقائها عامرة فتركوها على حالها حتى نالها الدمار مرة أخرى[8].

أما أفضل وثيقة للتعريف بموقع الرَّبع الرشيدي، فكتابات رشيد الدين نفسه حيث وصف الموقع بدقة في حجة الوقف، إضافة إلى ذلك تطرق رشيد في كتاب "مكاتبات رشيدي" إلى هذه العمارات في عدة مواضع، أهمها الرسالة رقم (51) حيث كتب رشيد يخاطب أحد أبنائه قائلا، إنه استفاد في بناء وإدارة الرَّبع الرشيدي، العلماء والمثقفون والمثقفين في زمانه وقد استقدمهم عبر رسل خاصين من أقصى نقاط العالم إلى تبريز، وقد استضافهم بإكرام وإجلال.

وكتب عن سعة الرَّبع الرشيدي وعظمته في هذه الرسالة: "يوجد في "الرَّبع الرشيدي" أربعة وعشرون خانًا لنزول القوافل تبدو وكأنها قصور الخورنق، وألف وخمسمائة حانوت، وثلاثون ألف بيت جميل إضافة إلى حمامات صحية وحوانيت وطاحونات ومصانع للغزل وصناعة الورق والصباغة ودور للمسكوكات وغيرها واستقدمنا من كل مدينة وثغر جماعة من الناس وأسكناهم في هذا الربع"[9].

إن هذه الكتابة تجسد بوضوح عظمة واتساع الرَّبع الرشيدي، وسنتطرق لاحقًا إلى سكنة الثلاثين ألف بيت، والى الأسباب التي دعت إلى بناء 24 خانًا للقوافل والمصانع المختلفة، ولماذا كان يتم استقطاب القوميات والأعراق المختلفة في الربع الرشيدي بمدينة تبريز.

وإذا أخذنا بالاعتبار معدل سكنة كل بيت بين ثلاثة وأربعة أشخاص، نستنتج أن سكان الرَّبع الرشيدي وضواحيه وتوابعه تجاوز المائة الف نسمة وأن ألف وخمسمائة حانوت تحكي مدى اتساع المجمّع.

لقد تم تعريف المركز العملي والتعليمي الكبير في مدينة الربع الرشيدي، في حجة الوقف بشكل جيد وكامل. ويتألف المركز بشكل عام من منشآت تعليمية مجهزة في الوسط بينما أقيمت سائر الأقسام من حوله، إضافة إلى ذلك فقد ورد في كتبات رشيد الدين ذكر لقسمين كبيرين غير الرَّبع الرشيدي وهما "الربض الرشيدي" و "المدينة الرشيدية" حيث كانت في الحقيقة محلات معروفة وكبيرة تتبع ضاحية "الرشيدية" أو على ما صفها "رشيد آباد".

أما سكنة المركز فهم في الغالب من موظفي الرَّبع الرشيدي الذين تم توظيفهم على أساس إمكاناتهم وتخصصاتهم وكانوا يقبضون مرتباتهم من المتولي. وكان لبعض الموظفين غرف خاصة في داخل الرَّبع الرشيدي مخصصة للعمل، (على شاكلة الجامعات في يومنا هذا

[8] شاردن، سياحت نامه ، مجلد 3 ص 406 طبعة طهران.
[9] مكاتبات الرشيدي، الرسالة 51، ص317.

حيث للأساتذة غرف خاصة) إضافة إلى أن لكل منهم مسكنًا خاصًا - طبقا لمستوى وظيفتهم، وبعض هذه المساكن كان قد شيّدها رشيد الدين نفسه من عائدات الأوقاف، ووضعها بالمجان تحت تصرفهم، فيما منح البعض الآخر أراضي بالمجان كي يبنوا عليها مساكن، فيما كان البعض الآخر يسكن مستأجرًا في بيوت متفرقة في محلات مختلفة.

وقد أشار في حجة الوقف بشكل مسهب إلى قضية المساكن وكيفية استخدامها وشروط السكن وذلك في (الفصل الرابع عشر من القسم الثاني، الباب الثالث لحجة الوقف) وجاء في جانب من هذا الفصل: "حددنا لكل ملازم أو مجاور ولعمال الرَّبع الرشيدي مسكنًا معينًا وحددنا مكانه ... شريطة ألا يأتوا بنسائهم وأطفالهم في الرَّبع الرشيدي وأن يعيشوا عزابًا فيه، ومن كان منهم متزوجًا أسكنا أهله وعياله في المدينة الرشيدية، وعليهم أن يبنوا هناك مساكن لهم أو يستأجروا أخرى، وأن يسكن بعض العمال غير الضروريين في أماكن خارج الرَّبع الرشيدي في مساكن حددناها لهم حيث سيرد تفصيلات ذلك "[10].

إن الدقة العالية التي وردت في حجة الوقف بشأن منشآت الرَّبع الرشيدي تجعلنا اليوم قادرين على تحديد مكانها عبر الخريطة كمحل بناية المنارة الكبيرة، ومحل سكان مسؤولي الرَّبع الرشيدي الثلاثة (المتولي، المشرِّف، الناظر) وسنوضح هذا الأمر لاحقًا، وأماكن المساجد والمدارس ومحل المكتبات ودار الشفاء، وبيت الصوفية (الخانقاه)، ومحل سكن المدرسين والمعيدين والطلبة وغيرهم بشكل دقيق، وبشكل مختصر يمكننا الإشارة إلى الأقسام الرئيسية الثلاثة لهذا المركز الكبير الذي أطلق عليه اسم "الرشيدية" و "رشيد آباد".

2. الربع الرشيدي:

كان الرَّبع الرشيدي -كما أشرنا- أهم الأقسام الرئيسة، وحوله كانت تقام سائر المنشآت الأخرى التي شيدت لاجله، وطبقًا لما ذكر الواقف فإنه كان يشتمل على منشآت مختصرة أضيفت لها لاحقًا أقسام أوسع حيث كتب يقول: "في تفصيل أعيان الأوقاف والبقاع المخصصة لأعمال البر ... إن الرَّبع الرشيدي عبارة عن موضعين، أحدهما تم بناؤه أولا وكذلك بوابته التي تتصل بالمنارات، والآخر تم بناؤه لاحقًا وكان بمثابة المكمل للبناء الأول الذي اتصل به، وقد تم بناء بوابة خارجية تجمع الوحدتين في مركز واحد عليهما سوية "الرَّبع الرشيدي" وأضيف فيما بعد بقاع الخير وتوابعها، وقد تم في أسفل القبة وكالمعهود تعيين مدفن الواقف وبعدنا لأولادنا حيث يكونون المتولّين في كل عصر[11]. وبعد هذا التوضيح، يتم تقسيم الرَّبع الرشيدي عدا القبة التي جعلها مدفنا لنفسه إلى أربعة أقسام حيث حدد لكل منها وظائفه بدقة، وهي:

---

[10] حجة وقف الربع الرشيدي ص 170.

[11] نفس المصدر، ص41.

أ- **الروضة**: وعن هذا القسم وكيفية الاستفادة منه كتب يقول:

الروضة: ويقع في وسطها حوض للماء وتشتمل على مسجدين، أحدهما صيفي مخصص لصلاة الجمعة والعيدين (عيد الفطر والأضحى) ... وإن امتلأ المسجد لكثرة المصلّين، فليقفوا في الصحن صفوفًا متراصة وليكن في الصيف محلا للبحث والدرس وسيأتي تفصيله. والآخر مسجد شتوي ذو قبة متصلة بالصفة الأمامية فليصلّ فيه في الشتاء ويتم فيه إلقاء دروس العلوم والتفسير والحديث وغيرها ويحتوي على دار المصاحف وكتب الحديث[12]. ويقع مكتب عمل المتولي والمشرف والناظر (ثلاثة من كبار المسؤولين أو الهيئة الإدارية للرَّبع الرشيدي) في أقسام مختلفة منه - ليس على جانب واحد - وقد رُتب مكان المكاتب بشكل يمكنهم من الإشراف على الأقسام المختلفة بشكل مباشر، وعن هذا كتب يقول: "إن مكتب المتولي مشرف على الروضة (وهو من أفضل الحجرات) ... أما مكتب المشرف فهو يتصل بدار الشفاء، بينما مكتب الناظر الذي يعمل نائبًا للمتولي، فيقع على بوابة الروضة من الجانب الأيسر"[13]. وهذا الأمر يحظى بالأهمية الخاصة من حيث الإدارة، والجدير بالذكر أن رشيد الدين كان يتبع نفس الدقة والنظام نفسه في انتخاب مساكن سائر موظفيه إلى درجة الوسواس أحيانا، فكان يراعي في مسألة انتخاب سكن أو غرف عمل الأساتذة والمعيدين بالمقارنة مع محل وجود الطلبة أو محل إقامة البوابين أو مسؤولي المكتبة ودار الشفاء وغيرها بالمقارنة مع أماكن أعمالهم، يضاف إلى ذلك أن رشيد الدين كان يراعي الأمر ذاته بالنسبة لمحل سكن عوائل موظفيه، على سبيل المثال فإن محلة الصالحية كانت لأفراد محددين سنتطرق لهم لاحقًا. وتشتمل الروضة أيضًا على حجرات وغرف خاصة لسكن المدرسين والمعيدين، وطلبة العلوم ومنشآت رفاهية كالحمام والمرافق الصحيّة، والسقاية (مياه الشرب) وغيرها، وتقع المكتبة تحت القبة الكبيرة إلى جانب مقبرته وهناك عنابر جانبية أخرى للمواد الغذائية، وخزانة النقود، والصالة الملكية (صالة استقبال مخصصة لاستقبال ضيوف المتولي الخاصّين)، غرفة للاجتماعات الخاصة لبحث القضايا السرّية ومواضيع أخرى.

ب- **الخانقاه (بيت الصوفية)**: "مع توابعه ومرافقه "[14]، ويتضمن مواقع سكن الشيخ وأنصاره من الصوفيين مع كل إمكانات الرفاهية كالمطبخ والمطعم ومحل السماع وغيرها.

ج- **دار الضيافة**: وهي بعد الروضة من أهم أقسام الرَّبع الرشيدي وقد أعدت لاستقبال موظفي الرَّبع الرشيدي والمسافرين والضيوف، وتشتمل دار الضيافة على مبنى كبير من

---

12 نفس المصدر، ص42.
13 نفس المصدر ، ص43.
14 نفس المصدر ، ص42.

طابقين، الجانب الأيمن منه على شكل غرف لسكان الرَّبع الرشيدي مثل المدرسين والمعلمين والموظفين والخدم وخاصة طلبة العلوم المختلفة، وهؤلاء كان يقدم لهم وجبة واحدة على الأقل كل يوم وهي وجبة الإفطار. ومن وجهة نظر إدارية، فإن عمل رشيد الدين هذا لم يكن مساعدة مالية ومادية للموظفين وسكان الرَّبع الرشيدي فحسب، بل كان عاملاً للمجيء مبكرين إلى مراكز أعمالهم؛ ذلك أن البدء بتوزيع وجبة الإفطار والانتهاء منه كل في زمان محدد، فإن انتهت الفترة الزمنية المحددة لا يتم إعطاء الغذاء لأحد، وكان يتم إطعام المسافرين وجبتين هما: وجبة الإفطار ذاتها، ووجبة العشاء.

د- **دار الشفاء (مستشفى وكلية للطب)**: وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل في مكان آخر من المقالة.

هـ- **دار المساكين**: وبالطبع لم تكن هذه داخل الرَّبع الرشيدي بل كانت متصلة بها في المدينة الرشيدية وكانت تقدم الطعام لمائة من الفقراء والمساكين في "تبريز" في كل وجبة مجانًا وكانت تستقبل فقراء المسافرين وقد شرح شروط الاستقبال وإعطاء الغذاء تفصيلاً[15].

3. المدينة الرشيدية:

وهي مجمع عمراني كبير للغاية يتألف من محلات مختلفة وشوارع وأزقة ومنشآت رفاهية واقتصادية مثل الحمامات وخانات المسافرين (24 خانًا) ومعامل الورق، والغزل، ودور للمسكوكات والنقود، والسوق وغيرها، وقد كانت جانبًا من منشآت "الرشيدية" أو "رشيد آباد" أو الربع الرشيدي. والنقطة الجديرة بالتنبيه، أن هذه الأقسام تم إنشاؤها تمامًا كالأقسام الأخرى وفق الخطة المرسومة، على سبيل المثال فإن كل محلة خصصت لطبقة معينة أو أصحاب حرفة معينة، وكانت محلة الصالحية واحدة من المحلات المعروفة في المدينة الرشيدية، وحول الموضع الجغرافي للمكان ووجه التسمية وظروف السكن كتب رشيد الدين يقول: "ومحلة الصالحية محلة من محلات المدينة الرشيدية بالقرب من الرَّبع الرشيدي، ووجه تسميتها بالصالحية إنما جاء لأنها خصصت لجماعة أهل الصلاح من المقيمين والملازمين في الرَّبع الرشيدي، وليس هناك مكان للفسقة حيث لا يحق لهم العيش هناك وعليهم أن يبنوا لأنفسهم دورًا في المدينة الرشيدية وباقي المحلات."[16] ومع الأخذ بالاعتبار الموارد أعلاه يتبين لنا واحدة أخرى من مناهج الإدارة والإشراف التي اتبعها رشيد الدين وهي:

أولا: أنه ومن أجل المحافظة على المكانة المهنية، وخاصة للمحافظة على معنويات وإحساسات الموظفين والسيطرة عليهم في خارج محيط عملهم وأن يعيشوا في زياراتهم وعلاقاتهم

---

[15] نفس المصدر ، صفحات 143-144.

[16] نفس المصدر، ص172، 188.

العائلية وإمكاناتهم الرفاهية ومشاكلهم الاجتماعية، في ظروف واحدة ومشابهة، مثلما هو حالهم في محيط العمل، أقدم على بناء مثل هذه المحلات أو في الحقيقة المجمعات السكنية.

ثانيًا: كتب رشيد الدين في رسائله أنه يجب توفير جميع مستلزمات الرفاهية للموظفين والعالمين لكي يتمتعوا بحياة مادية متوسطة، فعلى الموظفين والعاملين أن يكونوا من أهل الرفاهية. "لكي لا تشغلهم اهتمامات الرفاهية عن الإفادة والاستفادة" وإلا فإنه لو كان العاملون في المركز منهمكين ومشتغلين بتأمين حياتهم المادية ورفاهتها وخاصة معالجة المشاكل العائلية، فإنهم لن يستطيعوا أن يؤدوا ما عليهم من أعمال بصورة جيدة، وهذا الأمر بات من القضايا التي يهتم بها مدراء المنظمات الحكومية وغير الحكومية ورؤسائها، وعليه نرى أن كل منظمة تسعى لبناء مجمعات سكنية لا تُعنى إلاّ بتوفير رفاهية الموظفين من الناحية النفسية والاجتماعية، وان يتمتع الموظفون خارج محيط العمل بنوع واحد من الإمكانات والقيود النفسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى العائلية.

والمثير للانتباه أن رشيد الدين اهتم بتوفير الحياة المرفهة لمدرسي العلوم المختلفة أكثر من غيرهم، وكما ستلاحظ ذلك في الفصول المقبلة فإن محل سكن ورواتب الأطباء والأساتذة والمعيدين كانت تأتي في ترتيبها بعد المسؤولين الثلاثة الكبار (المتولي، المشرف، الناظر)، فكان يرى أن الذين يؤدون خدماتهم فكريا ونظريًا عليهم أن ينعموا برفاهة أكثر، وهي مسألة في غاية الأهمية، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على وعي هذا الوزير والسياسي والطبيب الحاذق في ويقظته قضايا الإدارة والقيادة.

4. الربض الرشيدي:

وهذا القسم: محل سكن الشخصيات وبناء القصور الخاصة في الرَّبع الرشيدي أو الرشيدية، حيث كانت تقطن عائلة رشيد الدين مع غلمانه الخاصّين ومسؤولي الأمن، وكذلك المهندسون والبنّاءون الخاصون الذين كانوا يشرفون على منشآت الربع الرشيدي، وكانت أفضل المواقع مخصصة للمسؤولين الكبار الثلاثة في الرَّبع الرشيدي وهم المتولي والمشرف والناظر، وفي باقي الأمكنة من هذه البقعة سكن باقي أفراد أسرة وعائلة رشيد الدين بالإضافة إلى الأقسام الثلاثة (الرَّبع الرشيدي، والمدينة الرشيدية، والربض الرشيدي) كانت هناك قرى أو بساتين كبيرة، تتصل بهذه الأقسام أو تجاورها وهي تتبع المجمّع، وكان يسكن في كل منها مجموعة من الفتيان يتبعون قومية معينة[17].

[17] محمد مهدي بروشكي، مصدر سابق ص 69-78.

توفير مياه الشرب لسكان الرَّبع الرشيدي وحمامات أهالي تبريز:.

استحدث رشيد قنوات متعددة، ومد القنوات بين الآبار، وأوقفها بهدف توفير مياه الشرب والحمامات وسائر احتياجات أهالي المنطقة بطريقة صحية وقد ورد في هذا المقام فصل مسهب في حجة الوقف.

5. كيفية تسيير الأعمال الإدارية والمالية في الربع الرشيدي:

أ- أسلوب الإدارة:

تولى رشيد الدين إدارة الرَّبع الرشيدي منذ التأسيس في 699هـ وحتى عشرين عامًا بعد ذلك (أي عندما قُتل في 718هـ)، حيث كان هو المؤسس، وقد صّرح بذلك في عدة مواضع من حجة الوقف، وذكر أنه سيكون المسؤول عن إدارة وتسيير أمور الرَّبع الرشيدي ما دام حيًّا، وبعد وفاته، جعل الإدارة في لجنة مؤلفة من ثلاثة أشخاص على رأسهم المتولي، وكتب في الباب الثالث من حجة الوقف: "أولا: وما دام هذا الضعيف على قيد الحياة فإنه يكون مسؤولا عن أبواب البر والأوقاف، وليس لأحد شرعًا التدخل في إدارتها، وأما بعد ذلك ..."[18]

ويُشترط في البدء أن تكون الإدارة بعده في ثلاثة، متولٍ ومشرف وناظر، يتم انتخابهم من أكبر أبنائه أو أكبر أحفاده وأبناء أسرته، إلا أنه غيّر رأيه بعد حين وكتب أن المتولي نفسه يختار في حياته، أكثر أبنائه جدارة وتقوى وإيمانا لهذه المناصب الثلاثة. وقد وضع شروطًا صعبة للتصدي لهذه المسؤولية بحيث تكون موافقة قاضي القضاة في "تبريز" عليهم شرطًا، إضافة إلى موافقة المتولي، وعندما يتم انتخابهم فعلى الجميع الانصياع لهذا القرار، وعن هذا كتب" والشرط في ذلك أن يكون هؤلاء (المسؤولون الثلاثة) أهلا وكفؤًا للمسؤولية تلركين لجميع المسكرات، ويجب أن يثبت ذلك عند حكم الشرع ... (وأكد بأن على هؤلاء التواجد في منطقة الرَّبع الرشيدي وأن يتولوا الإشراف والنظارة على الأعمال بأنفسهم وفي حالة عدم تمكن أحدهم ولأية أسباب على الحضور في الرَّبع الرشيدي، عليه أن يوكل الآخرين في تنفيذ أعماله"[19].

فالمتولي الذي كان مسؤولا مباشرًا عن الرَّبع الرشيدي كان عليه أن يتشاور مع المسؤولين الآخرين (أي المشرف والناظر) في الأعمال الأساسية والإجراءات المهمة خاصة الشؤون المالية، ومن ثم القيام بالخطوات العملية. وينصح المتولي برعاية الحقوق، وأن يكون خيّرًا صابرًا وفيًا بوعده، دقيقًا في تعيين الأفراد وتوظيف الأصلح والأكثر جدية من الأبناء للعمل في الرَّبع الرشيدي، وألا يستقرض المتولي؛ "لأن استقراض الكبير غير مستحسن؛ ذلك

---

[18] حجة وقف الربع الرشيدي، ص118.

[19] نفس المصدر ، ص121.

لأنه يدمر الكثير من البيوت خاصة الوقف"[20]. وأن يكون الناظر نائبًا للمتولي في غيابه كي يفصل في أمور الرَّبع الرشيدي وحل الأمور ورتقها.

ب- مهام وشروط توظيف وتقسيم العمل في الرَّبع الرشيدي:

أشارت حجة الوقف إلى مهام ووظائف الموظفين كافة من البواب والطاهي مرورًا بالمدرسين والطلبة وانتهاءً بالمسؤولين الثلاثة (المتولي، الناظر، المشرف)، وشرح هذه الوظائف خارج عن مدى هذا المقال، لكننا سنشير إليها باقتضاب.

من الملاحظ أن مهمات المتولي ووظائفه وردت بشكل متفرق في صيغة الوقف بصورة دقيقة للغاية، منها أن المتولي هو المسؤول المباشر عن الشؤون المالية والتوظيف والعزل والتعليم والبناء، وانتخاب الطلبة والمدرسين، وانتخاب موظفي الربع وخدم الأوقاف، وجميع الأمور المتعلقة بالرَّبع الرشيدي ولكن عبر التشاور مع المسؤولين الآخرين أي الناظر والمشرف.

إن أهم واجب أكد عليه رشيد الدين وأبدى حساسية تجاهه هو توظيف موظفي الربع وانتخابهم، حيث أكد على معيار التقوى والالتزام بالعقائد الإسلامية والأمانة في انتخاب موظفين، لقد راقب رشيد الدين أوضاع موظفيه من كافة الجهات الأخلاقية والعقائدية وكذلك الأمانة والالتزام والجدية في العمل، وإذا ما ارتكب أحدهم مخالفة، كان يقوم بمعاقبته أولا ثم طرده من المركز واختيار شخص آخر تتوافر فيه المواصفات المطلوبة مكانه، إن عملية المراقبة في هذا المجمّع كانت تتم بصورة جيدة؛ إذ أوصى الواقف، والمتولي بحسن الأخلاق والصبر والعطف وأن يكون ذا حمية على موظفيه والعاملين عنده.

وفيما يخص شروط انتخاب وتوظيف الطبيب فإنه كان - إضافة إلى مراعاة الشروط العامة (الالتزام والإيمان والتقوى والاجتناب عن المسكرات) - يشترط أن يكون حاذقًا وأمينًا، أو بالنسبة للمدرسين، يشترط أن يكونوا "فضلاء علماء بالأصول والفروع، ومعروفين بحسن السيرة والإصلاح" أما بالنسبة للطلبة والدارسين المتقدمين بالدراسة في الرَّبع الرشيدي - إضافة إلى الشروط العامة - (أن يكونوا محبِّين للعلم ومجدين) ويتم طردهم حال الإهمال والتقاعس في الدراسة وإحلال آخرين مكانهم، وأما بالنسبة إلى الموظَّف الإداري فلْن يكون عاملا متورعًا وكاتبًا في الوقت نفسه عارفًا بأمر صيانة الكتب". وبشكل عام فإن رشيد الدين أكد في التوظيف على شروط أخلاقية وعقائدية، إضافة إلى التبحر في التخصص بوصفه باعتباره من الأولويات المهمة.

[20] نفس المصدر ، ص124.

ج- الأملاك الوقفية لرشيد الدين استنادًا إلى حجة وقف الرَّبع الرشيدي

أشارت حجة الوقف للرَّبع الرشيدي أولا إلى الفهرس والحدود الجغرافية لأملاك مدينة يزد حيث تقع أكثر الأعيان الوقفية في هذا الإقليم من إيران - وقد تم تسجيل هذا الجانب من الأموال الوقفية بخط حاكم "تبريز" فيما قام رشيد بترقيم صفحاته بخطه.

على أية حال فإن فهرس الأملاك والأعيان الوقفية كتب على الصفحات 45 إلى 103 من الحجة، وبلغ عدد أعيان هذه الأموال والأملاك التي حددت ثغورها الجغرافية جهاتها الأربعة بالتحديد 661 قطعة مع العلم بأن ثلاثة أوراق من الفهرس (أي ست صفحات) وهي 77، 78، 79 قد ضاعت، فإذا أضفناها يبلغ عدد الأوقاف أكثر من سبعمائة قطعة أرض مفرزة أو مشاعة، وقرية، وقناة وقفية في "يزد" وضواحيها فقط، وبعد أملاك "يزد"، يأتي دور أوقاف "تبريز" ومن ثم أوقاف "مراغة" فالأملاك الوقفية في "أذربيجان" أو "دار الملك في تبريز" وهي على الصفحات 111 إلى 115، ثم يشير إلى أوقاف شيراز وأصفهان (الصفحة 116) وأملاك وقفية في الموصل.

ويشير في حجة الوقف أيضًا إلى قريتين كبيرتين باسم رشيد آباد وفتح آباد. وكان بستان رشيد آباد الكبير جدًا ينقسم إلى أربعة أقسام هي : نجم آباد، دينا باد، بستان فردوس، وبستان خانقاه، وقد تم إيواء مائة غلام ومائة جارية في هذه القرى الأربع التي يطلق عليها جميعها (رشيد آباد)[21].

د- كيفية رعاية الأوقاف وصيانتها وتأجيرها:

أوضح رشيد الدين طريقة الاستفادة من الأملاك والأراضي الوقفية وأشار إلى فترات وثائق الإيجار، وأخذ بالاعتبار ظروف المستأجر وكتب في حجة الوقف: "لا تؤجروا ولا تساقوا الأعيان الوقفية[22]، لأكثر من ثلاثة أعوام وتجنبوا التعامل مع المتحايلين"... وعليكم أن لا تؤجروا الأوقاف لمدة طويلة وامتنعوا عن تأجيرها لأصحاب النفوذ، ذلك لأن تسليم هذه الأعيان الوقفية لهؤلاء يعود عليها بالضرر الكبير ... "[23].

وبشأن إعمار الأعيان الوقفية وإضافة أعيان جديدة إلى الأملاك والعقارات الوقفية كتب رشيد الدين يقول: "وإذا كان نصف عائدات الأوقاف الذي يعود أساسًا للأعيان الوقفية غير كاف للصرف على أحيائها يجب تخصيص العائد كله لذلك، فإذا زاد عن ذلك يجب شراء ملك ووقفه على الأعيان وعلى الذريّة كما هو مذكور"[24].

---

[21] محمد مهدي بروشكي، المصدر السابق، ص79-94.

[22] الرقبات تطلق على كل أرض أو بناء أو عقار أو قناة ماء يوقف ريعه لصالح مركز وقفي، أي ما يسمى الأعيان الوقفية.

[23] حجة وقف الربع الرشيدي ، ص124.

[24] نفس المصدر ، ص133.

يمكننا أيضًا أن نلاحظ رأي رشيد الدين حول إعفاء الأوقاف من الضرائب، وذلك بهدف إيجاد ظروف فُضلى لإعمارها. ويقول رشيد الدين في خطاب وجهه لرجال الحكومة وعامة الناس في سيواس، أنه تناهى إلى أسماعه أن عوائد أوقاف "دار السيادة" في سيواس لم تصرف في مظانها وأن الأوقاف آخذة إلى الخراب، ويعيد هذا الأمر إلى ظلم المتولين والمسؤولين على الأوقاف ويقول أنه يتوجب تعيين أشخاص موثوق بهم لهذا الأمر. وكتب يقول :"إذا كان نقصان عوائد الأوقاف ناجمًا عن خراب القرى فينبغي صرف العوائد الحكومية على أعمارها أما إذا كان نقصان عوائد الأوقاف ناجمًا عن صدور حوالات ومطالبات تقدمت بها الضرائب من قبل الديوان، يجب إعفاء الأوقاف من دفع الحوالات والضرائب[25].

هـ) طريقة تنظيم ميزانية أوقاف الربع الرشيدي:

كان يتم تقسيم عوائد أوقاف الربع الرشيدي، بعد حساب الميزانية التي تعد لازمة للعام المقبل، إلى قسمين، فنصفها يكون من حصة أولاد رشيد الدين والنصف الآخر يخصص لصرفه على الربع الرشيدي، وهذا يعني أن لأولاد رشيد الدين – إضافة إلى حصة الإرث الواردة في الوصية (الرسالة 36) – حصة أخرى من عوائد الأوقاف. لكن اللافت للنظر أن المصاريف الضرورية لتهيئة الآلات وأدوات الأموال الوقفية مثل أدوات الحرث وكري القنوات، والأسمدة وحقوق المزارعين وإعمار الأماكن، وغيرها من المصارف، تكون متقدمة على حصة أولاد رشيد الدين؛ إذ نجد أن حجة الوقف تفرض على المتولي أن يعزل المصروفات المذكورة، ثم يقسم الباقي إلى قسمين: يخصص قسم لأولاده، والقسم الآخر لمصاريف الربع الرشيدي، ويؤكد أنه إذا حصل القحط والجفاف والآفات في سنة ما، فإن بإمكان المتولي أن يجعل مصاريف الربع الرشيدي في الأولوية بعد عزل مصاريف الأعيان. إن تقسيم الميزانية في الربع الرشيدي كان مفصلا، وهو يؤلف أحد الفصول الرئيسية في حجة الوقف، وسنكتفي بإيراد الأقسام الرئيسة والضرورية لها ونصرف النظر عن التفاصيل التي تخوض حتى في مصارف الأدوية والحطب وأمثالها لدار الضيافة أو مصاريف زيوت الإضاءة وغيرها. وقبل كل شيء نشير إلى مصاريف الربع الرشيدي الكلية:

1– المصاريف النقدية والعينية للرَّبع الرشيدي:

كتب رشيد الدين في نهاية حجة الوقف موجزًا للشروط والموضوعات الخاصة بالرَّبع الرشيدي (الصفحة 217 إلى 234 من حجة الوقف). وذلك – حسب قوله –: "لسهولة الضبط وسرعة الفهم"[26].

---

[25] بمتون، الملك والزارع في إيران، ترجمة منوجهر أميري ، نقلا عن مكاتبات الرشيدي ص156– 159.

[26] حجة وقف الربع الرشيدي، ص216.

أ) مجموع المبالغ النقدية:[27]

1. المجموع الكلي للمصاريف في المرحلة الأولى من تأسيس الربع الرشيدي	23705 دينارًا
2. مصاريف إضافية للأرامل في تبريز في كل عام	200 دينارًا
3. مصاريف إضافية مرحلة أولى	2843 دينارًا
4. مصاريف إضافية مرحلة ثانية	4870 دينارًا
المجموع الكلي للمصاريف النقدية في الربع الرشيدي	31618 دينارًا

كان الدينار في تلك الفترة يعادل ثلاثة مثاقيل من الذهب، وعليه يكون المجموع العام للمصاريف النقدية 94854 مثقالا من الذهب، نلاحظ أن مصاريف الربع الرشيدي يعادل نفقات أكثر المراكز التعليمية المتطورة المعاصرة. وإذا ما أضفنا إليها النفقات العينية، فإن حجم المصاريف يصبح كبيرًا للغاية، الأمر الذي يكشف عن أهمية ودور هذا المجمع العلمي – التعليمي.

ب) مجموع المصاريف العينية للرَّبع الرشيدي:

1. المجموع الكلي لمقدار الخبز المستهلك في المرحلة الأولى من التأسيس	298750 منًّا
2. إضافة أخرى	1800 منًّا
3. زيادة مرحلة أولى	11909 منًّا
4. زيادة المرحلة الثانية	73440 منًّا

المجموع الكلي للمصاريف الممنوحة للرَّبع الرشيدي بشكل مساعدات عينية (خبز) 385899 منًّا.

وهذا المجموع يبلغ 1157 طنًا في السنة (كل مّن تبريزي يعادل ثلاثة كيلو غرامات)، وعلينا إضافة مصروفات استقبال وضيافة آلاف العلماء والطلبة الذين كانوا يقدمون من مختلف المناطق إلى تبريز و لم يتم ذكرها في حجة الوقف لكنها ذكرت في رسائل الرشيدي.

2–تقسيم الميزانية في الربع الرشيدي:

قسم رشيد الدين ميزانية المركز طبقًا للأولوية التالية:

الأولى: دفع مرتبات لجنة الأمناء.

الثانية: دفع مرتبات موظفي الربع الرشيدي.

الثالثة: دفع مبالغ قيمة أدوات ومستلزمات الربع الرشيدي كالسجاد والمحروقات والمواد الغذائية وغيرها.

الرابعة: المصاريف غير المنظورة أو غير الضرورية.

[27] محمد مهد بروشكي، مصور سابق ص101–115.

6. مقدار مرتبات موظفي الربع الرشيدي:

ذكر رشيد الدين أثناء حديثه عن كل منشأة في حجة الوقف، عدد مسؤوليها وموظفيها مع شرح وظائفهم بدقة وتحديد مرتباتهم النقدية والمساعدات غير النقدية.

وهنا نشير باقتضاب إلى رواتب موظفي بعض المنشآت المهمة في الربع الرشيدي لكي نثبت أن الرواتب كانت جيدة جدًا، ونترك للقارئ مهمة مقارنتها برواتب اليوم.

أ- مرتبات موظفي المساجد:

1. إمام جمعة المسجد الصيفي والشتوي للرَّبع الرشيدي 120 ديناراً سنويًا و (ستة أمنان) من الخبز يوميًا.
2. مؤذّنون لمساجد الربع الرشيدي لكل واحد 90 ديناراً في السنة و (أربعة أمنان) من الخبز يوميًا.
3. مؤذّنون لسائر مساجد المدينة الرشيدية والربض الرشيدي والمحلات الواقعة فيه لكل واحد 50 ديناراً سنويًا و (عشرة أمنان) من الخبز يوميًا.
4. وعاظ المساجد 60 ديناراً في السنة و (خمسة أمنان) من الخبز لكل شخص يوميًا.
5. خدم المساجد 36 ديناراً في السنة و (منوان) من الخبز يوميًا.
6. سقاة المساجد 50 ديناراً في السنة و (منوان) من الخبز يوميًا.
7. البوابين، لكل واحد 30 ديناراً في السنة و (منوان) من الخبز يوميًا.
8. حملة مشاعل المساجد، لكل واحد 30 ديناراً في السنة و (منوان) من الخبز يوميًا.

ب- مرتبات موظفي المدارس:

1. خازن دار الكتب (رئيس المكتبة) 150 ديناراً في السنة و (ثلاثة أمنان) من الخبز يوميًا.
2. المرتب (رئيس المدرسة) 60 ديناراً في المرحلة الأولى ، ثم أضاف في الهامش 60 ديناراً، المجموع 120 ديناراً سنويًا و (أربعة أمنان) من الخبز يوميًا.
3. مسئول الكتب (المكتبي) المتخصص بإدارة المكتبات 120 ديناراً سنويًا و(ثلاثة أمنان) من الخبز يوميًا.

وستورد مرتبات المدرسين والمعيدين وموظفي بيت التعليم في الفصل الآتي.

ج- مرتبات منتسبي دار الحفاظ:

وعددهم 24 شخصًا يتلون وبشكل دائم طوال اليوم القرآن، إلا في حالة إقامة صلاة الجمعة والجماعة، وذلك تحت القبة في الربع الرشيدي، لكل واحد منهم 50 دينارًا في العام ومقدار من الخبز يوميًا.

د- مرتبات الخازن والكليدار (صاحب المفتاح)

وهم من الأفراد الموثوق بهم من قبل رشيد الدين وكان الواحد منهم يقبض 300 دينارًا في العام و(أربعة أمنان) من الخبز يوميًا. فيما كان فرّاش القبة الخاص يقبض 40 دينارًا في العام و (ثلاثة أمنان) من الخبز يوميًا.

هـ- رواتب أهالي الخانقاه (بيت الصوفية)

يقبض الشيخ 150 دينارًا في السنة و (خمسة أمنان) من الخبز يوميًا. 2- المتصوفة مبلغ 30 دينارًا في السنة و (ثلاثة أمنان) من الخبز يوميًا. 3- خادمين للخانقاه لكل منهما 40 دينارًا في السنة و (منوان) من الخبز يوميًا، 4- الفراش، وحامل المشعل، وخازن الخانقاه لكل منهم 30 دينارًا في السنة و (ثلاثة أمنان) من الخبز يوميًا.

و- رواتب موظفي دار الشفاء:

1. الطبيب 300 دينار في السنة كما ذكر في البدء، ثم أضاف إلى المبلغ في الهامش 150 دينارًا أخرى فبلغ المجموع 450 دينارًا حدًّا أعلى. وبصرف النظر عن الهيئة الإدارية فإن مرتب الطبيب من حيث الكم يأتي بالدرجة الثانية بعد مدرس العلوم المختلفة؛ إذ كان راتبه 500 دينارًا في السنة و (عشرة أمنان) من الخبز يوميًا.
2. طلبة المدرسة الطبية 30 دينارًا في السنة و (ثلاثة أمنان) من الخبز يوميًا.
3. الجراحون والكحالون (طب العيون) 100 دينارًا في السنة و (خمسة أمنان) من الخبز يوميًا.
4. سائر موظفي دار الشفاء الذين وردت تفاصيل مهامهم ومرتباتهم نستغني هنا عن ذكر تفاصيلها.

وكما أشرنا سابقًا إلى أن فلسفة رشيد الدين في دفع مرتبات كافية وعلى مستوى عال تكمن في أن إغناء الموظفين سواءً من هم في الكادر العلمي والإداري، أو غيرهم يؤدي إلى أن يعملوا بجد مع فراغ البال من هموم مصاريف الحياة ولقمة العيش.

ز- طريقة دفع المرتبات:

كان لدفع المرتبات ترتيب ونظم خاصة، وقبل الخوض في تفاصيل الأمر علينا الإشارة إلى أنه ورغم أن المرتبات كانت معينة على أساس أجرة سنوية، لكن أمر الدفع كان يتم وفقًا لما يجري عليه دفع مرتبات الموظفين في يومنا هذا، أي شهريًا، وكان يقدم لهم عبر رسوم خاصة، حيث توضع النقود في مناديل أو ظروفٍ خاصة.

ح- التأمين على الأفراد والأموال، والتقاعد:

تعدُّ قضية التأمين اليوم واحدة من أكبر الأمور التي تواجه المؤسسات الحكومية وغير الحكومية المختلفة سواءً كانت شركات أم مؤسسات تجارية، أو صناعية، أو زراعية أو غير ذلك. ربما لا نصدق أن هذا الأمر كان مطبّقًا قبل سبعمائة عام وذلك من قبل مؤسس الربع الرشيدي حيث طبق ذلك شخصيًا.

لقد بدأ رشيد الدين بتطبيق مشروع التأمين بشكل خاص على المزارعين الذين كانوا يعدون من أضعف الطبقات الوظيفية في الربع الرشيدي وهم من الفتيان والعبيد الذين كانوا يعملون في مزارع فتح آباد ورشيد آباد، وكان يؤكد على المتولين في المستقبل أن يهتموا بهذا الأمر وينفذوه بدقة - فكان يستقطع سُدس رواتب المزارعين السنوية ويضعها في صندوق خاص، فإذا تعرض المزارع أو أحد أفراد أسرته إلى حادثة ما، أو بقيت العائلة بلا عائل في حال وفاة ولي أمرهم، يتم مساعدتهم عبر هذا الصندوق ويمكننا إطلاق حكمة حق الضمان أو التقاعد على هذا العمل.

على سبيل المثال نراه فيما يخص 20 غلامًا تركيًا ما نصه "كل ما كسبوا فلهم خمسة أسداس منه ويتم حبس السدس الأخير، فإن توفى أحدهم بقي له أطفال وعيال وأيتام، أو تعرض لحادث أو فاقه، يصار إلى إعطائه الأموال اللازمة من الصندوق الخاص تحت إشراف المتولي دون إسراف، ولا ينبغي أن تنفق هذه الأموال في أي مجال آخر، وذلك لكي لا يحتاجوا للآخرين، ويكونوا مكتفين من حيث المؤنة"[28].

ط- تسريح الموظفين غير اللائقين:

أقر رشيد الدين مبدأ تسريح الموظفين غير اللائقين مع دفع التعويضات لهم، كما أخذ المؤسس في الحسبان كل التوقعات في الشؤون المالية لكل منشآت الربع الرشيدي؛ إذ يأمر المتولي بأن يهتم - بالإضافة إلى توفير ميزانية السنة الجارية - بادخار الأموال النقدية والعينية في المخازن والخزانات للسنة القادمة، فإذا ما واجهوا القحط في سنة ما أو اندلعت الحرب أو تأخر وصول المحاصيل من المناطق البعيدة إلى الربع الرشيدي، لا يبقون في عوز وحاجة ولا

[28] حجة وقف الربع الرشيدي ص153.

يمدون يد الاستقراض لأحد، ذلك أنه غير مستحسن، وفي هذا المجال كتب يقول: "إن الاستقراض للكبار أمر غير مستحسن فقد دمر بيوتات كثيرة خاصة الأوقاف"[29].

وفيما يخص سنوات القحط أو النقص لأي سبب كان، فعلى الجميع أن يكونوا مقتصدين في المصاريف غير الضرورية، إن المهم إداريًا هو أن رشيد الدين كان يؤكد على المتولي أن يطلع كل موظفي الربع الرشيدي وجميع أولاده الذين لهم حصة في عوائد الربع على النقص الحادث، كي لا توجه التهم الباطلة للمتولي ولكي يقوموا بدور حجم التقشف، والتعاون مع المركز، وهو في الحقيقة كان يوصي بتطبيق نظام "التقنين" ويؤكد عليه هذه الحالات.

لقد أسس رشيد الدين، هيكلية هذا المركز بطريقة فريدة ناجحة، ولكن حدثت بعض الأخطاء التاريخية التهم الكاذبة والدسائس السياسية العجيبة، وبالنهاية تحرك أحد خانات المغول الطائشين (أبو سعيد) المنهمك في نزواته حيث قضى وبشكل وحشي على صاحب هذا المركز العلمي. وليته اكتفى بقتله وقتل أبنائه وعائلته لكنه تطاول على آثاره الخيرية أيضًا، وصادر أمواله وأضرم النار في الربع الرشيدي ذلك المكان الذي كان مركزًا للنفع العام، وللأسف أقدم في اليوم التالي لقتل رشيد الدين على نهب وحرق الآثار كافةً، فقد حرّض علي شاه الكيلاني وأنصاره من عوام الناس فأجهزوا على كل شيء، وقد تكرر الحادث بعد إعادة إعمار الربع الرشيدي من قبل ولده غياث الدين محمد، حيث قُتل الأخير أيضا، فلم تقم قائمة لهذا الصرح بعد ذلك ودخل المركز ملف التاريخ[30].

7. النشاطات العلمية والتعليمية للرّبع الرشيدي:

إن جميع المنشآت العظيمة للرَّبع الرشيدي والأوقاف التابعة والميزانية الكبرى، كانت تقوم على محور تعليم العلوم المختلفة، وبعبارة أخرى كان الهدف النهائي لرشيد الدين فضل الله من إقامة هذه الصرح، حبه للعلم وعلاقته الوطيدة بالعلم والعلماء، إن توجه رشيد الدين جدير بالملاحظة من زاويتين:

الأولى: مكانة المركز في تلك البرهة التاريخية الخاصة، فبعد هجوم المغول حصل نوع من الانهيار في الشؤون الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعقائدية والسياسية، وفي ظل هذه الظروف انبرى رشيد الدين لتأسيس هذا المركز القيم، علّه يتمكن من إعادة الثقافة الإسلامية الغنية التي كانت قبل عصر المغول قد بلغت الذروة حيث شهد التاريخ عباقرة أمثال ابن سينا، والرازي والفارابي وأبو ريحان البيروني والغزالي وغيرهم،

---

[29] حجة وقف الربع الرشيدي ، ص124.

[30] محمد مهدي بروشكي ص 115.

فكان كمن أراد الإبقاء على مشعل الأمة الثقافي والروحي الـذي أخـذ بـالخمود، متوهجًا ومتألقًا.

الثانية: لقد كانت المنهجية التعليمية والأقسام الإدارية في الربع الرشيدي منعدمة النظـير في تلك الفترة وكان نظامه أكثر تطورًا من "النظامية" التي أسسها نظام الملك قبله بقرون، لكن الأهم من كل ذلك هو العمق العلمي وطريقة تفكير وعمل رشيد الدين، الـذي كان يبدو متقدمًا على زمانه مدة سبعة قرون.

على سبيل المثال، كان أطباء دار شفاء الربع الرشيدي وكما هو مـدون في حجـة الوقف يتناوبون في الدوام ليبقى المستشفى مفتوحًا طوال اليوم مع وجود طالب في الطـب وصيدلي بشكل مناوبة، وكان على كل طبيب أن يعّلم طالبين أحدهما في الطب والآخـر في الصيدلة، إضافة إلى ذلك كتب رشيد الدين إلى ابنه سـعد الدين يقول :"خمسـون طبيبًـا حاذقًا استقدمناهم من أفضل بلاد الهند ومصر والصين والشام وباقي البلـدان، وأمرنـاهم بالتردد المتناوب في دار الشفاء، ووضعنا أمام كل طبيب عشرة من المتعلمين والطلبة المتفوقين ليعلموهم هذا العلم الشريف، وقد بنينا للكحالين (أطباء العيون) والجراحين، والمجبّرين (أطباء العظام) الموجودين في دار الشفاء المنشغلين بوظائفهم مستوصفًا قرب بستان رشيد آباد أطلقنا عليه اسم (معالجة المعالجين) واسكنا أصـحاب الحرف والصناعات الذين جئنا بهـم مـن البلدان الأخرى في أزقة خاصة".

لقد كان موضع سكن الأطباء والطلبة في سرايا وحجر خاصة، وكانت دورة التعليـم في الطب خمس أعوام تبّين للأستاذ أن الطالب بات قادرًا على علاج المرضى وحده، يمنحـه وطبقًا للعادة الجارية إجازة لممارسة مهنة الطب ... وعلى الطبيب المذكور أن يعالج كافـة سكان الربع الرشيدي القاطنين أو المسافرين والعمال، وقرر الواقف أن يقدم الـدواء مجانًـا يومي الإثنين والخميس لجيران الربع الرشيدي من أولاد الواقف والغلمان الذيـن أطلقـهم والفلاحين والمزارعين في أوقاف الربع الرشيدي ، وإذا ما تدهورت صحة أحد المسافرين فإن على المتولي أن يحدد مكان استراحته ليتولى الطبيب معالجته ومن ثم مواصلة سفره كالضمـان الاجتماعي اليوم :(Sociale security).

ومثلما تتم محاولة الاستفادة من العلماء البارزين وممن أنهوا دراسـاتهم الأكاديميـة في المؤسسات العلمية المتطورة والعمل على توظيفهم ويطلق علي هذا العمل في يومنـا هـذا توظيف العقول المفكرة أو (Brain Gain)، كذلك كان دأب رشيد الدين دومًا وعبر برنـامج دقيق ومنظم أن يوظف العقول المفكرة والبارزة في الربع الرشيدي، وكان من جهة أخـرى يستغل هذا الوجود من أجل تربية الكوادر الوطنية، فقد كان يسكن في زقاق العلماء وحـده حوالي أربعمائة مفتٍ وعالم بالشريعة لهم مرتباتهم وعلاواتهم الكافية إضافة إلى المـترل ، وفي

زقاق الطلبة المجاور كان هناك الف طالب علم قدموا من مختلف البلاد الإسلامية، أما نفقات الدراسة (Scholarship) فكانت تقدم لهم طبقا لاستعدادات الطلبة.

ويبدو من خلال رسائله الكثيرة إلى بقاع العالم المختلفة أن دار الشفاء في الربع الرشيدي كانت تحتفظ بمجموعة متكاملة من أحدث الأدوية والزيوت النباتية الطبية. وكان له في الحقيقة متحف غني ومجهز. ويذكر بتروشفسكي في كتابه هذه الجملة :

"لقد استقدم من البلدان كافة أصنافًا من الأشجار المثمرة والرياحين والحبوب التي لم تكن معروفة أو موجودة في "تبريز"، وبعث الرسل إلى مختلف مناطق الدنيا للأتيان بالبذور الخاصة بتلك البلاد، وقد حدد في رسائله مقدار الزيوت المطلوبة بما يتراوح بين منٍّ واحد إلى ثلاثمائة منّ، كما حدد أماكن وجودها ومواصفاتها بدقة، وعدد في رسالة موجهة إلى "علاء الدين الهندو" استنادًا إلى تقرير طبيب مسؤول في مستشفى محمد النيلي حيث سماه في رسالته بـ "جالينوس العصر" عدّد أنواع الزيوت المعطرة والأدوية المختلفة مثل: الافسنتين، الخاراكوش، الكندر الرومي، البابونج، وزيت الخروع وزيت العقرب التي أمر بالإتيان بها من الخارج لعدم وجودها في إيران، وعيّن ستة أشخاص ليسرعوا في الإتيان بها من ستة مواقع جغرافية".

وفي مجال مساعدة العلماء ومواكبة التطور العلمي، نراه بالإضافة إلى أنه يضع آخر المعلومات والكتب والإمكانات اللازمة تحت تصرف العلماء في الداخل يكتب لولده أمير علي حاكم بغداد يأمره بأن يجزل العطاء لجميع علماء الإمبراطورية الإيرانية من جيحون إلى جمنا ومن الغرب حتى آسيا الصغرى وحدود مصر، وكانت تشتمل هذه الهدايا في كل مرة على مقدار من الأموال وإزارًا من الجلد أو القماش الفاخر ومحبرة. وفي رسالة أخرى أمر أحد عماله في آسيا الصغرى أن يجزل العطاء لعلماء المغرب أو الأراضي العربية الإسلامية، وكان ستة من العلماء الذين أورد أسماءهم يقطنون في قرطبة وأربعة في تونس وطرابلس والقيروان والباقون في الأندلس. وإذا أخذنا بالاعتبار المسافات البعيدة لهذه البلدان أدركنا عمق رؤية رشيد الدين في الاستفادة العالمية من العلماء وكان بحق يريد أن تتحول بلاد المسلمين إلى مركز علمي عالمي متطور في العلوم المختلفة وقتها.

وبالرجوع إلى مصادر موثّقة وكتابات رشيد الدين نفسه خاصة كتاب "الرسائل الرشيدية" و "حجة الوقف للرَّبع الرشيدي"، نستطيع القول أن مركز الربع الرشيدي العلمي الثقافي كان يضاهي المراكز المتطورة في يومنا هذا، وعلينا أن نقول لكل أولئك الذين يريدون تقليد الشرق أو الغرب في كل أعمالهم خاصة في التربية والتعليم، تعالوا إلى مثل هذه النماذج العظيمة في تاريخ المسلمين وثقافتهم، ولنجعل من هؤلاء قدوة نسير على خطاهم، بالطبع لا أقصد أن نهمل ما هو موجود في عالم اليوم أو أن نعود إلى القرن السابع أو الثامن

الهجري، كلا، بل نقول إنه وفي هذه البرهة حيث يكثر الكلام عن إحياء الحضارة الإسلامية والعودة إلى الذات، علينا أن نعني بالتطور الحاصل في مناهج التربية والتعليم في عالم اليوم، إلى جانب تعزيز القيم والمعتقدات والمناهج التعليمية والإدارية الإسلامية ومنحها الأولوية اللازمة بغية إحياء الثقافة الإسلامية الغنية، وإعلام الشرق والغرب بأن الإسلام وطريقة تفكيره قادران في عالم اليوم على احتضان حضارة وثقافة غنية وصلبة.

وفي ما يلي نستعرض منشآت الربع الرشيدي التعليمية:

أ) المنشآت التعليمية:

يمكننا تقسيم التعليم في الربع الرشيدي إلى عدة مراحل:

1. بيت التعليم.
2. التعليم المهني.
3. المدارس العليا.
4. دار الشفاء.

1- بيت التعليم:

يتم هنا تعليم الأطفال الصغار، خاصة أطفال موظفي الربع الرشيدي وعدد من الأيتام في تبريز، القراءة والكتابة وهي تناظر في يومنا هذا المدارس الابتدائية، وقد حددت حجة الوقف مكان بيت التعليم بالضبط، وهو وحدة صغيرة بالقياس إلى باقي المدارس في الروضة، وعنها كتب رشيد الدين يقول "... وهذا البيت في الروضة يعد أكبر بيوتها" وكان لكل معلم على الدوام عشرة متعلمين وكان هذا المنهج ذا أهمية بالغة من الوجهة التعليمية والتربوية، وكان كل الطلبة والمعلمين يقيمون في الربع الرشيدي ليل نهار.

وكان للأطفال مشرف واحد يبقى معهم ليل نهار يُدعى المشرف أو (أتابك) وكان لهذا الشخص فقط أن يستقدم زوجته وأطفاله ويسكنهم إلى جانب بيت التعليم داخل الربع الرشيدي، وقد حدد رواتب موظفي بيت التعليم والطلبة بشكل دقيق حسب التفصيل الآتي:

للمعلم 120 ديناراً سنويًا (عشرة دنانير شهريًا) من النقد الرائج في تبريز (أربعة أمنان) من الخبز يوميا (144 منًا سنويًا) ولـ الاتابك أو المشرف على الأطفال 60 دينارا سنويا و(منوان) من الخبز يوميًا.

وكان اليتامى من الأطفال الذين تمت الإشارة اليهم يمكثون في القسم الداخلي حتى تعّلم القراءة والكتابة (خاصة تعلم القرآن) والحِرَف المهنية كي ينهض كل واحد منهم بنفسه،

وكان لهؤلاء مخصصات سنوية تعادل 12 ديناراً سنوية تعادل 12 ديناراً و (منًا) من الخبز يوميًا.

2- التعليم المهني:

وكان خاصًا بأبناء موظفي الربع الرشيدي ، خاصة الغلمان الـ 220 في الربع الرشيدي وقد أوصى رشيد الدين المتولي أن يوفي الإمكانات اللازمة كي يختار كل طفل ما يستهويه من أعمال في الربع الرشيدي وفي باقي المؤسسات التابعة مثل المزارع والمعامل وغيرها، وقد اقترح رشيد الدين في حجة الوقف أشغالا لهؤلاء الأطفال.

"ليمض أبناء هؤلاء قدمًا في تعلّم صناعة أو مهنة توافق ظروفهم كالخط أو الخطابة أو الرسم أو الصباغة أو البستنة، أو الزراعة أو العمارة وسائر الحرف الأخرى، وذلك بإشراف المتولي وفيما يراه صالحًا، ليتعلموا مهنة معينة ويكتسبوا لقمة العيش من خلالها والأفضل المضي في حرفة والديهم قدر الإمكان"[31].

و لم يكن للتعليم المهني كالتعليم النظري مبنى معين، بل كان الأمر يتم عند مواقع العمل على أيدي الأساتذة المحترفين في الربع الرشيدي، والمهم هنا هو عناية رشيد الدين بهذه الأمور وتأكيده عليها بوصفها جزءًا من وظائف المتولي وأصلا من أصول حجة الوقف وقد أشار إلى ذلك في كتاباته (المكتوب 51).

3- المدارس العليا:

أنشأ رشيد الدين في الربع الرشيدي مدرسة لفرعين من العلوم عند مسجدي الروضة المتقابلين أي المسجد الصيفي والشتوي، وكان للمسجدين في بادئ الأمر مدرسان اثنان ومعيد للتدريس في فرعين من العلوم، وكان للمدرس الأول طالبان فقط وللثاني عشرة طلاب.

وقد ارتفع في عام 715هـ عدد المدرسين والطلبة بحيث أصبح عدد مدرسي علم الحديث والتفسير اثنين وعدد الطلبة من طالبين إلى خمسة (أي ما مجموعه عشرة أشخاص) فيما ارتفع عدد مدرسي العلوم الأخرى من مدرس ومعيد إلى ثلاثة مدرسين وثلاثة معيدين، وعدد الطلبة لكل مدرس عشرة أشخاص (أي ما مجموعه ثلاثون شخصًا) في حين كان عدد طلبة سائر العلوم قبل هذا التاريخ عشرة طلاب فقط، يضاف إلى ذلك أنه جاء في هامش الصفحة 165 (خلف الورقة 106 من حجة الوقف) أن رشيد الدين عيّن مدرسَيْن خاصين لتدريس تأليفات رشيد الدين نفسه وقد عين مرتباتهم ومكان التدريس والإقامة وعدد الطلبة.

---

[31] حجة وقف الربع الرشيدي ص 151.

إن الموضوع المهم في هذه المدرسة العليا التي كانت تضم ثلاثة حقول علمية (1- فرع التفسير والحديث ؛ 2- فرع العلوم العقلية والحساب وغيرها؛ 3- تدريس تأليفات رشيد الدين). هو اهتمام رشيد الدين بتدريس فروع العلوم العقلية والرياضية و ... وغيرها مما كان يسميها "سائر العلوم" إذا كان مدرسوها وطلبتها أكثر من الفروع الأخرى، إضافة إلى أنه كان إلى جانب كل مدرس مساعد معيد، وكانت رواتب هؤلاء المدرسين أكثر من مدرسي تأليفات رشيد الدين نفسه، وكما يلاحظ في تصوير الصفحة المقابلة أو الورقة 107 فإن راتب مدرس علم التفسير والحديث كان 105 دنانير في العام (بغير المساعدات العينية خمسة أمنان من الخبز يوميًا، دون أن تضاف علاوات أخرى على هذا الراتب، لكن الحال مع مدرسي سائر العلوم كان مختلفا، فالراتب كان 360 ديناراً وراتب المعيد 160 ديناراً، ثم هناك علاوة بخط رشيد الدين نفسه 140 ديناراً لراتب المدرس، وللمعيد 40 ديناراً بحيث أصبح راتب مدرسي سائر العلوم 500 ديناراً في العام (أعلى مرتب في الربع الرشيدي) والمعيد 200 ديناراً في السنة (بغير المساعدات العينية (ستة أمنان) من الخبز يوميًا.

وقد عيّن رشيد الدين لكل مدرسة مديرًا يعمل تحت إشراف المتولي وبتعيينه، وكان واجب المدير هو الإشراف والتخطيط وضبط وتسيير أمور المدرسة. وكان راتبه أولا 60 ديناراً ولكن تم فيما بعد أضافه 60 ديناراً أخرى لها لتكون 120 ديناراً في السنة (ما يعادل مرتب معلم في بيت التعليم أو المدرسة الابتدائية في الربع الرشيدي).

وجاء في نص الهامش الأيسر في أسفل الصفحة المذكورة، تحديد الفترة الزمنية لدراسة كل طالب، وهي خمسة أعوام، فإذا قصّر الطالب في دراسته، تم طرده، ليحل آخر مكانه ولتوضيح الأمر نطلعكم على نصوص جاء فيها:

"وقد اشترط في أن تكون مدة الدراسة لكل طالب من الطلاب العشرة، خمس سنوات يقضيها في هذه البقعة، وفي حالة انقضائها، على المتولي أن يبدله بآخرين من أمثاله، وإذا حصل أثناء السنوات الخمس أي أعرض أحد الطلبة عن الدراسة وتقاعس في تحصيل العلوم يجب استبداله أيضا".

ويمكننا ذكر خصائص مدرسة الربع الرشيدي واختلافاتها الأساسية مع المدارس المشابهة على الترتيب التالي:

- تحديد شروط التوظيف المدرسين والمعيدين من حيث الاعتقاد والأخلاق والإلمام العلمي والتخصصي، فمن الناحية العلمية والتخصصية كان ينبغي أن يكون الأساتذة والمعيدون قد بلغوا درجة الاجتهاد المتقن أو القدرة إلى التدريس في الفرع المنظور.
- تحديد عدد الطلاب في كل صف ، وهو أمر لم يكن متبعا في تلك الفترة وفي المدارس الأخرى (قبل وبعد الربع الرشيدي) وإذا كان عدد الطلبة كبيرا في سائر المدارس

الأخرى كان يتم تشكيل حلقات دراسية كبيرة، ولأنه لم يكن صوت المدرس يبلغ الجميع فكان اثنان من المعيدين يقومون بمهمة الإعادة على طرفي الأستاذ أو على طرفي المسجد، بالطبع فإن تقييم مدى استيعاب الطلبة في هذا الجمع الكثير عمل صعب للغاية ولا يمكن ضبطهم، وعلى الرغم من أن مجموعة كبيرة ربما كانت تستفيد من العلم، لم يكن الناتج كثيرا. يضاف إلى ذلك أن عملية تسجيل الحضور والغياب لم تكن تتم في المدارس القديمة، بينما لم يكن الحال كذلك في الربع الرشيدي فعدد الطلبة كان أقل، وكان حضور الطلبة الزاميا و لم يكن بوسعهم مغادرة المدرسة إلا بإجازة المتولي أو المدير، وإذا تكاسل الطلبة أو تغيبوا عن حلقة الدرس كان يتم معاقبتهم، وربما وصل الأمر إلى الطرد، وعليه لم يكن بمقدور الأفراد غير المجّدين الاستمرار في هذه المدرسة وفق الظروف الصعبة، وكان المتخرجون الذين يحصلون على "إجازة الرواية" (أو ما يصطلح عليه اليوم بالشهادة) يتبحرون في فروعهم وتخصصاتهم.

- تعيين زمان الدراسة بشكل محدد للطلبة، وهذا الأمر من الخصائص المهمة للرَّبع الرشيدي وأحد الفوارق المهمة مع المدارس المشابهة؛ ذلك أن المدارس الأخرى لم تكن تحدد زمنًا معينًا للدراسة (وهكذا الحال في يومنا هذا في المدارس الدينية) فربما استمرت فترة دراسة العلوم الإسلامية) خمسة عشر أو عشرين عامًا، وفي بعض الأحيان طوال العمر. في حين نرى أن رشيد الدين حدد ولأول مرة تاريخ التعليم في العالم الإسلامي، سنوات الدراسة، فإن لم يتمكن طالب ما من تحصيل الدرجة العملية المنظورة في هذه المدة، كان يتم طرده من المدرسة دون إعطائه شهادة تخرج. وصحيح أن عدد طلبة مدارس الربع الرشيدي كان محدودا، لكن خريجي هذه المدارس كانوا من النخبة فلم تتحول البيئة التعليمية إلى مؤسسة تمنح الرواتب الزهيدة بشكل دائم بحجة مواصلة التعليم، و لم يكن المركز مرتعا للكسالى من الطلبة، وهذا في حد ذاته نقطة مشتركة بين مدارس الربع الرشيدي والجامعات الحديثة في يومنا.
- اختبار استعدادات الطالب ومن ثم تعيين حقل الدراسة ويعد هذا الأمر واحدا من القضايا المهمة المطروحة في التعليم اليوم، وقد سبقهم إلى ذلك رشيد الدين قبل سبعة قرون، و لم يؤكد رشيد الدين في حجة وقف الربع الرشيدي على أهلية الطلبة في فروعهم الدراسية فحسب بل أكد ذلك في كتاباته الرشيدية قائلا:" يجب أن يتم امتحان أهلية الطالب ثم تعيين الفرع والأستاذ، وقد جاء في جانب من (الرسالة 51): " لقد حددنا لكل طالب علم أستاذه، واختبرنا كل طالب علم من جهة قدرته الذهنية ونوعية أهليته للفروع والأصول النقلية والعقلية، فأمرنا بدراسة الفرع المناسب...". ويتم في مجالات التربية والتعليم الحديثة والمتطورة اليوم، اختيار الطلبة على هذا الأساس، وذلك عبر الامتحانات والاختبارات المختلفة، لكن رشيد الدين لم يوضح -للأسف- طريقة

الاختبار، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الأمر كان يتم عبر التجربة والاحتكاك المتوالي للمسؤولين مع الطلبة وربما كانت المحاورة المباشرة، وهو أمر لم يكن معهودا في ذلك العصر وحتى بعده.

- التفكيك بين فروع العلوم المختلفة، إن مدارس الربع الرشيدي - كما سبق- كانت تدرس عدة علوم منها علم التفسير والحديث والفقه والعلوم الإدارية والحساب (الرياضيات) والطب على وجه الخصوص حيث سنتطرّق إلى ذلك لاحقا. وكان جميع ذلك تابعا لنظارة ورئاسة المتولي العالية (بمثابة رئيس الجامعة) وضبط وبرمجة المرتِّب (رئيس الكلية).
- الإبقاء على الطلبة في الربع الرشيدي بشكل دائم (إقامة داخلية) وتوفير كل ما يحتاجون إليه من غذاء وملبس ومسكن وتأمين صحي وحمام وعلاج (طبابة في دار الشفاء) مجانا، إضافة إلى منحهم مساعدات مالية لمصاريفهم اليومية، كذلك توفير وسائل رفاهية المدرسين والمعيدين وباقي موظفي الربع الرشيدي، إضافة إلى تعيين مساكن لهم وعوائلهم في محلات المدينة الرشيدية، وكذلك مكتب العمل الواقع الربع الرشيدي والخاص بكل أستاذ كما هو الحال في جامعات اليوم.

وعليه فإن الطلبة والمدرسين كانوا يعكفون على الاهتمام بالدراسة دون الانشغال بالهموم المالية، وكانوا يشغلون أكثر أوقات فراغهم بالمطالعة في المكتبة التي كانت تحتوي على ستين الف مجلد بالرَّبع الرشيدي وفيها أنواع الكتب في الفروع العلمية واللغات المختلفة.

4- دار الشفاء (الكلية الطبية)

إن دار الشفاء أو المستشفى كانت وحدة منفصلة ومجهزة في الربع الرشيدي باعتبارها كلية طبية، ذلك أن كل طبيب ممارس كان له خمسة عشرة من الطلبة المتعلمين في علوم الطب. وكان أطباء دار الشفاء في الربع الرشيدي - كما يبدو من حجة الوقف والمكاتبات الرشيدية - على نوعين؛ مجموعة كانت تعمل طوال اليوم والأخرى كانت تعمل نصف دوام، أما الأطباء الدائمون فكانوا في الفروع المختلفة: طبيب عام ومساعد طبيب للأمراض العامة، وطبيب عيون (كحال)، وعدد من الجراحين وأطباء العظام (مجبّر) و لم يكن لهؤلاء حق ممارسة المهنة الطبية في خارج الربع الرشيدي أو الخروج منه بدون إذن المتولي، وكان على الطلبة مواصلة الدراسة على مدى خمسة أعوام في مجال الطب، وفي نهاية المطاف كان عليهم أن يحصلوا على شهادة تمنحهم حق ممارسة الطبابة، وإلا فإنه لم يكن من حقهم ذلك. وكان لزاما على الطلبة وأثناء ممارسة معالجة المرضى (بعد الظهر في أيام الاثنين والخميس) أن يكونوا مساعدين للطبيب، أي أن يتلقوا في الصباح الدروس النظرية في الطب ويمارسون الطب عمليا

بعد الظهر إلى جانب الطبيب – الأستاذ؛ إضافة إلى ذلك هناك معيد إلى جانب الطبيب يساعده في التدريس ومعالجة المرضى وإعداد الأدوية.

وكان على الطبيب أثناء معالجة المرضى أن يجلس أمام باب الصيدلية أو كما يسميها رشيد الدين نفسه "الشبكة" ويكتب الدواء بعد معاينة المرضى على نسخة ورقية ويحولها إلى مسؤول الصيدلية (الخازن) ويتولى الأخير والصيدلي إعطاء الدواء للمريض[32]. والجميل في الربع الرشيدي أنه لم يكن يؤخذ أجر الطبابة من المقيمين والمسافرين و حتى باقي المرضى، فالعلاج كان بالمجان تماما. بينما كان إعداد الأدوية يتم بتكاليف باهظة ذلك أنها كانت تجمع من أقصى نقاط العالم (مثلما سيأتي ذكره) حيث كان يتم جمعها في مخزن كبير وخاص، وإذا لم يكن المريض من سكان الربع الرشيدي قادرا على مراجعة دار الشفاء كان على الطبيب أن يذهب إليه، وكان على الصيدلي أن يقدم له الدواء وأن يهيأ المطبخ (الخاص بالمستشفى) الغذاء اللازم المقرر من قبل الطبيب المعالج. وكانت ردهات المستشفى مقسمة إلى قسمين، قسم للمرضى العاديين وآخر للأمراض السارية، وكان للمستشفى عدة ممرضين أو كما سماهم رشيد الدين "خادمي المرضى".

ب) صيدلية الربع الرشيدي وأنواع الأدوية الواردة من البلدان المختلفة:

لقد وردعن صيدلية دار الشفاء في الربع الرشيدي في المكاتبات الرشيدية وحجة الوقف، فقد أشارت حجة الوقف إلى المئات من الحاويات الكبيرة التي يحفظ كل منها حاجة عدة سنوات من الأدوية وقد كتب أسماء الأدوية على الحاويات التي وضعت في مخازن خاصة إلى جانب دار الشفاء، وتواجهنا في المكاتبات الرشيدية عدة رسائل حيث يطلب رشيد الدين من أبنائه وعماله في مختلف المناطق توفير وإرسال الأدوية الخاصة، على سبيل المثال نرى في رسالة بعث بها – وهي بمثابة تكليف بمهمة رسمية – إلى شخص يدعى "علاء الدين هندو" طالبا منه أن يرسل أشخاصا إلى مختلف المناطق داخل وخارج البلاد ليجمعوا أدوية معينة.

3) أطباء غير دائمين:

كان هناك – كما سبقت الإشارة – أطباء آخرون يعملون نصف وقت الدوام ويترددون على الربع الرشيدي ، وكانوا يقومون بتدريس علم الطب وربما كانوا يمارسون الطبابة أيضا، وقد أطلقنا عليهم أطباء غير دائمين) وأغلب هؤلاء الأطباء كانوا يقدمون من مناطق بعيدة أو من بلاد أجنبية إلى مدينة تبريز وكان لكل منهم عشرة من الطلبة يعلمونهم الطب (في حين أن لكل طبيب مقيم خمسة من الطلاب) وكان محل سكنهم في محلة خاصة باسم "زقاق المعالجين" في حين يسكن المقيمون في مجال الصالحية المجاورة للرَّبع الرشيدي باعتبارها واحدة من أفضل محلات المدينة الرشيدية، يضاف إلى ذلك أنه كان لهؤلاء غرفة

[32] نفس المصدر ، صفحات 147و 182.

عمل خاصة في الربع الرشيدي ، و لم يكن للأطباء غير المقيمين غرفة عمل في داخل الربـــع، وكان عددهم يبلغ خمسين طبيبا.

وهكذا يبدو أن عدد طلبة الطب كان على الأقل 500 طالبا، إذا احتســبنا أن لكــل طبيب غير مقيم 10 طلاب، بغير الطلبة الذين كانوا يتلقون تعليمهم في داخل الربع، إن رغبة رشيد بهذا الفرع من العلوم يرجع إلى أنه كان نفســه طبيبا معروفا ومشهورا. ناهيك عن أن خانات المغول كانوا على رغبة شديدة بالعلوم الطبية ويدعمونها ويحرصون عليها.

4) بيت الكتب أو مكتبة الربع الرشيدي:

كانت المكتبة واحدة من أكثر منشآت الربع أهمية، وكانت تعد من أكبر المكتبــات في عصرها. وقد أنشأت المكتبة على طرفي القبة الكبيرة على مقبرة رشيد الدين نفسه، وبجوارها كانت تقع غرفة عمل المتولي وهو في الحقيقة بمنزلة المدير العام أو الرئيــس الأعلــى للرَّبــع الرشيدي. وكانت المكتبة تتألف من قسم على يمين القبة وآخر على الجانب الأيسر، إضافــة إلى ذلك كان هناك موضع تحت القبة لحفظ المئات من المصاحف الثمينة المنسوخة بخط جميل.

وكتب رشيد الدين أنه وقف على حجم ونوعية جميع الكتب الموجودة في المكتبة وقــد أورد عناوينها في فهرست خاص يجب أن يحفظ عند المتولي.

وقد أوكل للحفاظ على الكتب في كل جانب خازنا للكتب وشخصا آخر وصفــه بمناول الكتب (متخصص في إدارة المكتبات) وقد حدد لهؤلاء شروطا أخلاقيــة واعتقاديــة وتخصصية وفي هذا كتب يقول: "لقد اشترطنا أن يقوم على المكتبات خازن ومناول، عــاقلين ورعين لهما باع في التأليف ومعرفة الكتب"[33]. وقد أفرد لهؤلاء كما لباقي موظفــي الربــع الرشيدي قائمة بالوظائف والواجبات إضافة إلى الراتب والمزايا وباقي الإمكانات الرفاهية.

وكان مفتاح المكتبة بيد الخازن، وكان ينبغي أن يوقّع على فهرس الكتب التي كــان يضاف إليها كتب جديدة باستمرار كل من المتولي والناظر والمشرف، وكان يتم الاحتفــاظ بالفهرس ويوضع تحت اختيار المراجعين في كل قسم من المكتبة.

وقد أشار تفصيلا إلى طريقة الاستفادة من المكتبة حيث لا تتفاوت مع الأساليب المتبعة في يومنا هذا، فكان يحق للطلبة أو المدرسين استعارة أي كتاب ومطالعته في صالة المطالعة، أو أخذه معهم، و لم يكن من حقهم إخراجه من الربع الرشيدي دون ضمان.

و لم تشر حجة الوقف للربع الرشيدي على ما يبدو إلى عدد الكتب – ربما كان ذلــك في الأوراق الساقطة من حجة الوقف – لكن رشيد الدين كتب في رسائله بشأن المكتبة وعدد كتبها والمصاحف ونوعيتها وأعدادها، إلى (صدر الدين تركه) أحد معتمديه، وكان بمنزلــة

[33] نفس المصدر، ص197.

المدير العام كما قلنا، حيث يقول: "... وأيضا بنيت بيتين للكتب إلى جوار القبة على اليمين واليسار، وأوقفت هناك الف مصحف –على الربع الرشيدي، وتفصيله على النحو التالي: ما كتب بماء الذهب من المصاحف فهو 400 مصحف، وهناك 10 مصاحف نسخت بخط الياقوت، و10 مصاحف أخرى نُسخت بخط ابن مقلة، و 20 مصحفا بخط أحمد السهروردي، و 20 مصحفا بخط أخرى كبار العلماء، أما ما كان بخطوط واضحة وجيدة فهو 548 نسخة أخرى. يضاف إلى ذلك 60 ألف مجلد من الكتب في مختلف أنواع العلوم والتواريخ والأشعار والحكايات والأمثال وغيرها، جمعت من توران ومصر والمغرب والروم والصين والهند. وقد أوقفتها جميعا على الربع الرشيدي "[34].

إن أهمية هذه المكتبة إضافة إلى امتلاكها المصاحف القيّمة والثمينة المكتوبة بالذهب والياقوت والتي نُسخت بعضها بايدي كبار العلماء كأحمد السهروردي – تنبع من احتضانها للكتب في شتى فروع العلم والتواريخ والأشعار والحكايات وغيرها وبلغات مختلفة كالفارسية والعربية والصينية والرومية حيث جمعت الكثير من الكتب من هذه البلاد. وعليه كان العلماء الذين كانوا يفدون من مختلف بقاع الأرض إلى تبريز، أو كان رشيد الدين يستقدمهم للرّبع ، كانوا يستفيدون من هذه الكتب، و لم يجمع رشيد الدين هذه الكتب عن طريق الشراء أو الاستنساخ فحسب، بل إنه رغّب العلماء ودعاهم للمشاركة في مسابقات علمية في مجال التأليف في مختلف أنواع العلوم الأمر الذي كان يؤدي لأن يعرض العلماء نتاجاتهم على هذه المكتبة.

نلاحظ أن هذه المكتبة – كما هو الحال بالنسبة لباقي المنشآت التعليمية في الربع الرشيدي – كانت تضاهي كُبْرى المكتبات في عالم اليوم من حيث الحجم والنوعية. وللأسف فإن هذا الجانب تعرّض كباقي منشآت الربع للحرق والنهب على أيدي الفوضويين الذين حرّكهم معارضو رشيد الدين.

والآن .. ما العمل؟

يلاحظ القارئ أنه قد كان لدينا ومنذ سبعمائة عام في عالمنا الإسلامي مركز وقفي علميّ تربويّ و لم يكن من حيث حجم العائدات والبرمجة التعليمية متفوقا في زمانه وعصره فحسب، بل كان كذلك لقرون تلت على صعيد العالم كله.

ولكن –للأسف– لم تعبأ المجتمعات الإسلامية وحكوماتها خلال القرون اللاحقة، (ولأسباب مختلفة لا يسعها مقالنا)، بتطوير المؤسسات الوقفية العلمية والتربوية خاصة في مجالات العلوم التجريبية والطبيعية، واكتفوا في بعض الأحيان بإنشاء مدارس العلوم الدينية فحسب، ثُمَّ تم تناسي دور الوقف في تطوير العلوم والفنون وإدارة شئون المراكز العلمية

[34] سوانح الأفكار للرشيدي، المكتوب 37، صفحات 313–314.

والبحثية رويدًا رويدا، على النقيض مما حصل في البلاد الغربية خاصة في القرن الحاضر حيث ازدادت المؤسسات الوقفية العلمية والتعليمية والبحثية التي مهّدت الأرضية لتطور تلك البلاد وتقدمها.

ويعد توسيع سنة الوقف وإقامة مؤسسات وقفية في جميع المجالات الضرورية للبلاد الإسلامية من متطلبات التقدم العلمي والتحقيقي والفني وأمثال ذلك. أن تحقيق مثل هذه السعادة والاهتداء إلى الطريق الصائب يستلزم عناية إلهية والعمل على اكتساب هذه العناية. إن المطلوب من أمة كبيرة وعريقة كالأمة الإسلامية خاصة في مثل هذه الظروف الراهنة، الاهتمام بحركة الوقف الخاص والمؤسسات الوقفية العامة والجمعية وذلك لتحقيق الكثير من الأهداف والمصالح العامة للأمة.